

جيل الى آخر ، وأن هناك أيضاً تغيير صرف، كأن يكون شيء ما معرضاً للضياع على الدوام ، وأن يكون شيء ما، على النحو ذاته ، في دور الاكتساب ، لا يستطيع النقاد أن يدركوا هذا ما لم يبلغ الأدب النضج — زمام يتجاوز لحظة النضج ويتقدم موعداً في العصر التالي. وفي اکتبال أي أسلوب يمكن أن يلاحظ ، مثلما يلاحظ في نضج الأفراد، أن بعض الاحتمالات الكامنة لم تُدفع الى التحقق إلا بالتنازل عن الإمكانيات الأخرى . وفي الواقع فإن جزءاً من متعتنا في بواكير الأدب، كمتعتنا في البهجة التي نحس بها لدى الأطفال، يكمن في وعينا لكثير من الاحتمالات الكامنة التي لا يمكن تحقيقها جميعاً . ومن هذه الناحية يمكن أن يكون الأدب البدائي أغنى من ذلك الذي يليه . فالأدب يختلف عن الحياة البشرية في أنه يستطيع أن يرتد الى ماضيه الخاص، وأن يطور بعض القدرات التي جرى التخلي عنها . لقد رأينا في عصرنا اهتماماً متجدداً بـ (دون) ونعد دون ، بشعراء أسبق منه مثل سكيلتون . ويستطيع الأدب أيضاً أن يجدد نفسه من أدب لغة أخرى، غير أن العصر الذي عاش فيه جونسون لم يكن قديماً بما يكفي ليشعر بالحاجة الى مثل هذا التجديد : بل كان قد وصل منذ حين الى نضجه. وكان في وسع جونسون أن يتصور أدب عصره بالغاً المستوى الذي يمكن الحكم على أدب الماضي انطلاقاً منه. وفي عصر كعصرنا الذي يفترض فيه غالباً أن الجدة أولى مقتضيات الشعر اذا كان له أن يجتذب انتباهنا ، والذي تعد فيه أسماء مثل «الرائد» و«المجدد» بين الألقاب الأكثر تشريفاً ، يصعب إدراك وجهة النظر هذه . فنحن نرى ، بسهولة، ألوان سخفها ، ونعجب للثقة التي استطاع بها جونسون أن يأخذ على (ليسيداس) الافتقار الى المزية التي نجدها الأكثر منافاة للدوق فيها ، واستطاع أن يبدد دون الخشونة أسلوبه . وعندما يكتب جونسون عن شكسبير تتولانا الحيرة ازاء سكوت جونسون عن البراعة في الصياغة الشعرية. وهنا لم يكن يوجد حكم مسبق ضد اسلوب خاص من الأساليب الشائعة في الكتابة . كعهده حين يناقش الميتافيزيقيين، ولانفور شخصي من الرجل ، كعهده حين يتعامل مع ملتون ، وإنما هي الملاحظة المتناهية في الحدة ، والتقدير الأسمى،